التراث الإنساني
NYROUF

عيون الأخبار

لابن قتيبة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

إبراهيم الإبياري

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

الانجاز الطباعى والفنى	وزارة الإعلام
محمود الهندى	وزارة التعليم
مراد نسيم	وزارة الحكم المحلى
احمد صليحة	المجلس الأعلى للشباب والرياضة

المشرف العام

د . سمير سرحان

عيون الأخبار
لابن قتيبة
إبراهيم الابيارى

ابن قتيبة

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المروزى ، والمروزى نسبة الى مرو ـ قصبة خراسان ـ وكان أبوه « مسلم » من أهلها . والدينورى نسبة الى دينور ـ مدينة من أعمال الجبل قرب قوميسين ـ ولى أبو محمد قضاءها وأقام بها مدة فنسب اليها .

وكان مولد أبى محمد سنة ٢١٣ هـ ، لم يذكر واحد ممن أرخو له ، وهم كثيرون ، الشهر الذى ولد فيه .

ويذكر ابن النديم (٣٢٨ هـ) وابن الأنبارى (٥٧٧ هـ) وابن الأثير (٦٠٦ هـ) أن مولده كان بالكوفة ، على حين يذكر الخطيب البغدادى (٤٦٢ هـ) والسمعانى (٥٦٢ هـ) والقفطى (٦٤٦ هـ) أن مولده كان ببغداد .

وهؤلاء المؤرخـــون الذين يختلفون فى مكان ولادة ابن قتيبة يختلفون فى وفاته ، فيذكر الخطيب البغـدادى روايتين عن وافاته : احداهما تقول : ان وفاته كانت فى ذى القعدة من سنة سبعين ومائتين ، والثانية تقول : ان وفاته كانت فى الليلة الأولى من رجب سنة ست وسبعين ومائتين ، ويسكت الخطيب فلا يرجح رواية على رواية .

ويقتصر ابن الأنبـارى على الرواية الثانية وهى أن وفاته كانت سنة ست وسـبعين ومائتين ، ولا يشـير الى الرواية الأولى .

ويزيد ابن خلكان (٦٨١ هـ) على روايتى الخطيب رواية فيقول : توفى فى ذى القعدة سنة سبعين ، وقيل سنة احدى وسبعين ، وقيل أول ليلة من رجب سنة ست وسبعين ومائتين . غير أنه لا يترك هذه الروايات دون أن يعقب حاكما فيقول : والأخيرة أصح الأقوال .

وثمة دليل يزكى ابن خلكان فى حكمه ، وذلك أن قاسم بن أصبغ الأندلسى (٢٤٧ هـ ـ ٣٤٠ هـ) وهو ممن أخذوا عن ابن قتيبة ببغداد ، كانت رحلته الى المشرق سنة (٢٧٤ هـ) .

ولا يعنينا بعد ذلك ما ورد عن الألوسى نعمـان بن محمود بن عبد الله (١٣١٧ هـ) فى كتابه « جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين » (ص ٢٣٦) بأن وفاة ابن قتيبة كانت سنة ٢٦١ هـ .

وفى بغداد كانت نشأة ابن قتيبة وحياة التلقى ، اذ المعروف أنه قرأ على أحمد بن سعيد اللحيانى ، صاحب أبى عبيد القاسم بن سلام ، كتاب الأموال فى سنة ٢٣١ هـ فى بغداد . واذا عرفنا أن مولد ابن قتيبة كان سنة ٢١٣ هـ عرفنا أن عمر ابن قتيبة كان حينذاك ثمانية عشر عاما . وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه من أن نشأته كانت ببغداد . وبعد ذلك كانت رحلته الى الدينور فيما بين سنتى ٢٣٢ هـ و ٢٤٧ هـ ، وهى المدة التى وزر فيها أبو الحسن عبد الله بن يحيى بن خاقان للمتوكل والتى فيها اصطنع ابن قتيبة وأظله بظل جاهه والتى فيها صنف له ابن قتيبة كتابه « أدب الكاتب » وأثنى عليه فى خطبته ثم كانت بعدها عودة ابن قتيبة الى بغداد الى أن مات فيها فيما نعلم . فالخطيب البغدادى يذكر فى تاريخه (١١ : ٨) أن ابنه أبا جعفر أحمد ولد له ولد اسمه عبد الواحد فى بغداد سنة سبعين ومائتين ، ونعلم أن أبا جعفر كان يعيش فى بغداد مع أبيه الى أن انتقل الى مصر بعد وفاة أبيه .

وهكذا كانت حياة ابن قتيبة بين بغداد والدينور ، فى بغداد ولد وفى بغداد نشأ حتى اذا ما شب وبلغ مبلغ الرجال أو كاد وأدرك الثلاثين أو جاوزها بقليل وأنس أنه مفيد من علمه فى غير بغداد رحل الى الدينور حيث ابن خاقان وزير للمتوكل .

فهو لم يترك بغداد الا بعد أن كمل له الأخذ عن شيوخه والتلقى عنهم ، ولقد كانوا كثرة يذكر المؤرخون منهم نحوا من الثلاثين ما بين محدث وفقيه وأديب ولغوى وشاعر . وهم :

١ ـ مسلم بن قتيبة ، والد أبى محمد الذى نترجم له . وقد حدث عنه أبو محمد غير مرة ، نقرأ له ذلك فى كتابه « عيون الأخبار » وفى كتابه « المعارف » .

٢ ـ أحمد بن سعيد اللحيانى ، صاحب أبى عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤ هـ) وقد قرأ عليه أبو محمد كتابيه ـ أعنى كتابى أبى عبيد ـ وهما : « الأموال » و « غريب الحديث » . وكان ذلك فى سنة ٢٣١ هـ . أى وسنه نحوا من ثمانية عشر عاما ، كما ذكرنا .

٣ ـ أبو عبيد محمد بن سلام الجمحى (٢٣٢ هـ) وكان راوية عالما بالأخبار . ومن كتبه :

(أ) « طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين » مطبوع .

(ب) « غريب القرآن » .

(ج) « بيوتات العرب » .

٤ ـ ابن راهويه أبو يعقوب اسحاق بن ابراهيم (١٦١ هـ ـ ٢٣٨ هـ) عالم خراسان فى عصره وكان من كبار الحفاظ صحب الشافعى وناظره . وروى عنه أكثر

رجال الحديث الستة وكانت له رحلات الى العراق والحجاز والشام واليمن . وما من شك فى أن ابن قتيبة أخذ عنه فى خرجة من خرجاته الى العراق .

٥ ـ أبو عبد الله حرملة بن يحيى التجيبى المصرى (١٦٦ ـ ٢٤٣ هـ) فقيه محدث مولده ووفاته بمصر . وهو من أصحاب الشافعى . ومن كتبه : « المبسوط والمختصر » .

٦ ـ يحيى بن أكثم القاضى (١٥٩ ـ ٢٤٢ هـ) وكان من أجل الفقهاء ولى للمأمون قضاء البصرة ثم كان قاضى قضاة بغداد له ثم للمتوكل الى أن عزله سنة ٢٤٠ هـ ورحل الى مكة يجاور بها . وفى اقامته تلك بمكة أخذ عنه ابن قتيبة . وما من شك فى أن ذلك كان فى حجة له فيما بين سنتى ٢٤٠ هـ و ٢٤٢ هـ وهى السنة التى توفى فيها يحيى .

٧ ـ دعبل بن على الخزاعى الشاعر (١٤٨ ـ ٢٤٦ هـ) وكانت اقامته ببغداد . وكان شاعرا مجيدا .

٨ ـ أبو حاتم السجستانى سهل بن محمد بن عثمان (... ـ ٢٤٨ هـ) وكان عالما باللغة والشعر له أكثر من ثلاثين كتابا . ويقول الأزهرى فى مقدمة كتابه « التهذيب » وهو يتحدث عن أبى حاتم : « وقد جالسه عبد الله بن مسلم بن قتيبة » .

٩ ـ شبابة بن سوار الفزاري (... ـ ٢٥٥ هـ) محدث ثقة وكان يقول بالارجاء .

١٠ ـ الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر (١٦٣ هـ ـ ٢٥٥ هـ) وكان اماما في الأدب وهو رأس الفرقة الجاحظية من المعتزلة وتصانيفه كثيرة .

وقد صرح ابن قتيبة بالنقل عنه في كتابه (عيون الأخبار » حيث يقول : (٣ : ١٩٩ و ٢١٦ و ٢٤٩) « وفيما أجاز لنا عمرو بن بحر من كتبه » .

١١ ـ الرياشي أبو الفضل العباس بن الفرج (١٧٧ هـ ـ ٢٥٧ هـ) وكان لغويا راوية عارفا بأيام العرب ، ومن كتبه : « كتاب الخيل) و « كتاب الابل » .

هؤلاء جملة ممن روى عنهم ابن قتيبة يمثلون نواحي متميزة من لغة وأدب وفقه وحديث ، ومن أهملنا ذكرهم لا يخرجون فيما يعون عن هذه النواحي .

وكما أخذ ابن قتيبة أعطى فاذا هو الآخر يملي في اللغة والنحو والأدب والفقه والحديث ، يفرد للناحية الواحدة كتابا كما يجمع بين نواح مختلفة في كتاب .

(أ) فله في اللغة ، وأعني ما يمس اللغة كلمات وما وراء تلك الكلمات من دلالات يجمعها غرض خاص ، أو تنتظم حول شيء بعينه ، فكان شبه معجم خاص ولم يبلغ أن يكون معجما عاما .

١ ـ غريب القرآن ٠

٢ ـ مشكل القرآن ٠

والكتابان مطبوعان ٠

٣ ـ غريب الحديث ٠ ومنه قطعة بالخزانة الظاهرية بدمشق ٠

٤ ـ اصلاح غلط أبى عبيدة فى غريب الحديث ٠

٥ ـ المسائل والاجوبة فى الحديث واللغة ٠ وهو مطبوع ٠

ويكاد ينضم الى هذا النوع من التاليف اللغوى كتب أخرى لابن قتيبة تحوى مادة حول أغراض خاصة هى باللغة ألصق ، وهى :

١ ـ كتاب الأشربة ، وهو مطبوع ٠

٢ ـ خلق الانسان ٠

٣ ـ كتاب الخيل ٠

٤ ـ كتاب الأنواء ٠ ومنه مخطوطة بالخزانة التركية بالقاهرة ٠

٥ ـ الميسر والقداح ٠ وهو مطبوع ٠

٦ ـ الجراثيم . وفى الخزانة الظاهرية منه نسخة تحمل اسم ابن قتيبة .

(ب) وله فى النحو :

١ ـ القراءات ، أو اعراب القراءات .

٢ ـ جامع النحو الكبير .

٣ ـ جامع النحو الصغير .

(ج) ونستطيع أن نعد له فى الحديث هذه الكتب التى قدمتها فى باب اللغة والتى تتصل بغريب الحديث كما نستطيع أن نضم اليها :

١ ـ تاويل مختلف الحديث ، وهو مطبوع .

(د) وفى الفقه ألف ابن قتيبة :

١ ـ جامع الفقه .

ونستطيع أن نضيف اليه كتابيه اللذين ذكرا من قبل فى اللغة وهما :

٢ ـ الأشربة .

٣ ـ الميسر والقداح .

فهما الى جانب ما فيهما من مادة لغوية يعرضان لأحكام فقهية .

(هـ) وبعد هذا يأتى جهد ابن قتيبة فى الناحية الادبية ، وهى الناحية التى استوعب الكثير من جهد ابن قتيبة وكان فيها مؤلفا ذا نزعتين :

١ ـ نزعة خاصة يملى فيها عن غرض خاص ، كالشعر والكتابة .

٢ ـ نزعة عامة يملى فيها عن أغراض متفرقة أقرب الى أغراض الموسوعات الأدبية التى تجمع متفرقات من هنا ومن هناك يحتاج اليها الأديب ، اذ كان لا يستوى أن يكون الرجل أديبا الا اذا اجتمعت له أطراف من المعرفة .

ولقد شاع هذا اللون الموسوعى فى الأدب والتأريخ قبل ابن قتيبة ، الف وكيع فيه كتابه « الشريف » الذى حاكاه ابن قتيبة فى كتابه « المعارف » ، كما ألف ابن حبيب (٢٤٥ هـ) كتاب « المحبر » الذى يقال عنه : ان « المعارف » لابن قتيبة صورة منه .

ومن كتب ابن قتيبة ذات الغرض الخاص فى الأدب :

١ ـ كتاب عيون الشعر .

٢ ـ طبقات الشعراء ، وهو مطبوع .

٣ ـ كتاب أدب الكاتب ، وهو مطبوع . نستطيع أن نعده من هذا اللون اذا نظرنا اليه على أنه يعالج غرضا

واحدا ، ونستطيع أن نعده من الصنف الثانى الذى سأسوقه اذا نظرنا الى أغراضه المختلفة .

أما عن تآليف ابن قتيبة فى الأغراض الموسوعية الجامعة فمنها :

١ ـ كتابه المعارف . وقد عرفت أن ابن قتيبة كان مسبوقا الى مثل هذا اللون من التآليف سبقه فيه وكيع وابن حبيب ثم كان له معاصر ألف فى هذا الغرض هو ابن رسته أبو على أحمد بن عمر فقد ضمن كتابه « الأعلاق النفسية » جملة من الأبواب التى انتظمها كتاب « المعارف » .

وجاء بعد ابن قتيبة من حاكى وقلد فابن الجوزى (٧٩٧ هـ) فى كتابه « تلقيح فهوم الأثرة فى التاريخ والسيرة » يحكى ابن قتيبة فى كتابه « المعارف » .

٢ ـ كتاب المعانى الكبير ـ والكتاب يشتمل على اثنى عشر كتابا .

كتاب الفرس ، ستة عشر بابا ـ كتاب الابل ، ستة عشر بابا ـ كتاب الحرب ، عشرة أبواب ـ كتاب القدور ، عشرون بابا ـ كتاب الديار ، عشرة أبواب ـ كتاب الرياح ، واحد وثلاثون بابا ـ كتاب السباع والوحوش ، سبعة عشر بابا ـ كتاب الهوام ، اربعة عشر بابا ـ كتاب الدواهى ، سبعة أبواب ـ كتاب النساء

والغزل ، باب واحد ـ كتاب الشيب والكبر ، ثمانية أبواب كتاب تصحيف العلماء ، باب واحد .

وقد طبع من هذا الكتاب بعضه بالهند : كتاب العرب وعلومها . ونقل عنه ابن عبد ربه فى كتابه العقد (٢ : ٨٨) طبعة بلاق .

٣ ـ كتاب عيون الأخبار ، وهو ما سنحدثك عنه فى تفصيل .

وبعد هذا فابن قتيبة قد عاش فى جو صاخب بالآراء الدينية وكان غير بعيد بعلمه عن هذا فكان له :

١ ـ الرد على المشبهة ، وهو مطبوع .

وهذه الكتب التى ذكرناها لابن قتيبة تكاد تكون هى كل كتبه ويكاد يكون ما ذكر له بعدها أبواب من هذه الكتب ، لا يدفعنا عن ذلك قول صاحب « التحديث عن مناقب أهل الحديث » بأن كتب ابن قتيبة بلغت ثلمتائة كتاب .

وثمة كتاب شاعت نسبته الى ابن قتيبة هو كتاب « الامامة والسياسة » ، والأدلة كثيرة على أنه ليس له ، منها :

١ ـ أن الذين ترجموا لابن قتيبة لم يذكروا هذا الكتاب بين ما ذكروه له من كتب « هذا اذا استثنينا

التوزرى أبا عبد الله فهو ينقل فى الفصل الثانى من الباب الرابع والثلاثين من كتابه « صلة السمط » نقولا عن كتاب الامامة والسياسة عازيا الكتاب الى ابن قتيبة .

وما كان التوزرى معاصرا لابن قتيبة أو قريبا من معاصر فيحتج بقوله ، فلقد كانت وفاته سنة (٦٨١ هـ) وما أبعد ما بينه وبين ابن قتيبة ، وكانت الكتب التى ترجمت لابن قتيبة عمدته فى ذلك ولقد قدمنا أن ليس ثمة كتاب ذكر ذلك ، وظاهر أن التوزرى وقع على نسخة من الامامة والسياسة تحمل اسم ابن قتيبة فاجتزأ بذلك ولم يعن نفسه بالبحث عن صحة هذه النسبة .

٢ ـ فى الكتاب ما يشير الى أن مؤلفه كان بدمشق . والمعروف أن ابن قتيبة لم يكن له رحلة الى دمشق .

٣ ـ يروى مؤلف الكتاب عن أبى ليلى . وأبو ليلى كان قاضيا بالكوفة سنة ١٤٨ هـ أى قبل مولد ابن قتيبة بخمس وستين سنة .

٤ ـ كما يروى مؤلف الكتاب خبر فتح الأندلس عن امرأة شهدته . وفتح الأندلس كان قبل مولد ابن قتيبة بنحو من مائة وعشرين سنة .

وغير كتاب الامامة والسياسة وصية يقال ان ابن قتيبة كتبها الى ولده ، وقد نشرها الدكتور اسحاق موسى

الحسيني في مجلة الجامعة الأمريكية ببيروت . ولكن أسلوب هذه الوصية يدفع نسبتها الى ابن قتيبة .

وبقدر ما اجتمع لابن قتيبة من مشايخ ، وبقدر ما اجتمع له من علم ، اجتمع له تلاميذ نقلوا عنه نقوله ، ورووا عنه علمه ، نذكر منهم :

١ ـ ابنه أحمد (٣٢٢ هـ) ويقول عنه عياض في كتابه « المدارك » انه كان يحفظ كتب أبيه كما يحفظ القرآن .

٢ ـ أحمد بن مروان المالكي (٢٩٨ هـ) وقد روى عن ابن قتيبة كتاب « تأويل مختلف الحديث » ، وبروايته انتهى الينا .

٣ ـ أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن أيوب بن بشير الصائغ (٣١٣ هـ) وقد روى عن ابن قتيبة كل مصنفاته .

٤ ـ أبو محمد عبيد الله بن عبد الرحمن السكري (٣٢٣ هـ) وقد سمع عن ابن قتيبة كتاب « غريب الحديث » ، كما سمع عنه « اصلاح الغلط » سنة ٢٦٨ هـ وقد انتهى الينا بروايته عنه كما انتهى الينا بروايته عنه أيضا كتاب « المسائل والأجوبة » .

٥ ـ قاسم بن أصبغ الأندلسي (٣٤٠ هـ) وفي رحلته الى الشرق سنة ٢٧٤ هـ قرأ على ابن قتيبة كتاب « المعارف » وكتاب « شرح غريب الحديث » .

٦ ـ عبيد الله بن جعفر بن درستويه الفسوى (٣٣٥ هـ) وقد انتهى اليضا من روايته عن ابن قتيبة « كتاب الأشربة » .

٧ ـ أبو بكر أحمد بن الحسين بن ابراهيم الدينورى . وقد قرأ على ابن قتيبة كتاب « تأويل مختلف الحديث » .

★ ★ ★

والحياة التى نشأ ابن قتيبة فى ظلها فى بغداد كانت حياة علم ورأى تفيض بهذا كله الذى أخذ منه ابن قتيبة عن شيوخه وأخذه عنه تلاميذه .

فلقد شارك فى محنة خلق القرآن وكان له فيها رأى ، وشارك فى فتنة المشبهة والمجسمة وكان له فيها رأى ، وشارك فى الخلاف النحوى بين البصرة والكوفة وجعل بينهما مدرسة ثالثة فى بغداد كان هو راعيها ، وشارك فى الرد على الشعوبية حين كانت لهم جولات فى تنقص العرب . ثم لقد رأى العصر عصر المام ومشاركة فى كل العلوم فكان اماما من هؤلاء العلماء المشاركين .

ولكن هذا جر على ابن قتيبة كثيرا من القيل والقال ، منه ما هو له ومنه ما هو عليه ، وكان شأنه فى ذلك شأن غيره ، فمن ألف استهدف .

وكما وثقه ابن تيمية والحافظ السلفى والخطيب البغدادى والحافظ الذهبى وابن الجوزى وابن خلكان

وقالوا عنه انه كان ثقة دينا وعالما فاضلا ، ضعفه آخرون ، منهم : الدارقطني أبو الحسن علي بن عمر والبيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين واتهموه بأنه كان يميل الى التشبيه والتجسيم ويرى رأى الكرامية ، وهم أقرب ما يكونون الى المشبهة وينعون على « علي » صبره على ما جرى لعثمان .

وكما لم يسلم ابن قتيبة ممن يؤذيه في دينه لم يسلم ممن يؤذيه في علمه ، فاتهمه ابن الأنباري (٣٢٨ هـ) بالاعتماد على الشاذ من اللغة ، كما اتهمه أبو الطيب (٣٥١ هـ) بالأخذ عن غير الثقات وشروعه في أشياء لا يقوى لها ، يعد عليه من ذلك كتابه في النحو ، وكتابه في تعبير الرؤيا .

وكذلك اتهمه بعد هذين الحاكم النيسابوري أبو عبد الله محمد (٤٠٥ هـ) بأن الأئمة قد اجتمعت على كذبه .

ونجد ابن تغرى بردى (٨٧٤ هـ) في كتابه « النجوم الزاهرة » (٣ : ٧٥) يقول : وكان ابن قتيبة خبيث اللسان يقع في حق كبار العلماء .

وما نشك في أن كلام المتهمين فيه غلو ، كما لا نشك في أن طموح ابن قتيبة دفعه الى الخوض في ميادين كثيرة ربما كان معها بعض البعد عن التحري ، وهذا هو ما مكن لخصومه من أن ينالوا منه .

وهذا الكتاب قسمه ابن قتيبة الى عشرة كتب صغيرة :

الأول : كتاب السلطان ـ ويتناول : السلطان وسيرته وسياسته واختيار العمال وصحبة السلطان وآدابها وتغير السلطان وتلونه والمشاورة والرأى واتباع الهوى ، والسر وكتمانه واعلانه ، والكتابة والكتاب ، وخيانات العمال والقضاء والشهادات ، والأحكام ، والظلم ، والحبس ، والحجاب ، والتلطف فى مخاطبة السلطان والخضوع فى طاعته .

الثانى : كتاب الحرب ـ ويتناول : آداب الحرب ومكايدها ، والأوقات التى تختار لها ، والدعاء عند اللقاء ، والصبر وحض الناس يوم اللقاء عليه ، والحيل فى الحروب ، وأخبار الجبناء والشجعان والفرسان وأشعارهم ، والعدة والسلاح وآداب الفروسية ، والمسير فى الغزو والسفر ، والطيرة والفأل ، ومذاهب العجم فى العيافة والاستدلال بها ، كما عرض لذكر الخيل والبغال والحمير والابل وغير ذلك .

الثالث : كتاب السؤدد ـ ويتناول : مخايل السؤدد وأسبابه ، والتناهى فى السؤدد ، والسيادة والكمال فى الحداثة ، والهمة والخطار بالنفس ، والشرف والسؤدد بالمال ، وذو الفقر والحض على الكسب ، وذم الغنى ومدح

الفقر ، والتجارة والبيع والشراء والدين واختلاف الهمم والشهوات والأمانى ، والتواضع والكبر والعجب ، ومدح الرجل نفسه وغيره . ثم الحياء والعقل والحلم والغضب والعز والذل والهيبة ، والمروءة ، واللباس والتختم والطيب والمجالس والجلساء والمحادثة والثقلاء والبناء والمنازل والمزاح والرخص فيه . ثم التوسط فى الأشياء وما يكره من التقصير فيها والغلو والتوسط فى الدين ، والتوسط فى العقل والرأى ، وذم فضل الأدب والقول ، والتوسط فى الجدة ، والاقتصاد فى الانفاق والاعطاء ، وأفعال من أفعال السادة والأشراف .

الرابع : كتاب الطبائع والأخلاق المذمومة ـ ويتناول: تشابه الناس فى الطبائع وذمهم ، ورجوع المتخلق الى طبعه ، والحسد والغيبة والسعاية والكذب والقحة وسوء الخلق وسوء الجوار والسباب والشر والحمق وطبائع الانسان ، وما نقص خلقه من الحيوان ، والمشتركات من الحيوان والمتعاديات وغير ذلك . ثم الأمثال المضروبة فى الطبائع وطبائع الحيوان وخواصها كالسباع وما شاكلها ، ثم النعام والطيور وأنواعها والحشرات والنبات والحجارة والجن .. الخ .

الخامس : كتاب العلم والبيان ـ ويتناول : العلم والكتب والحفظ والقرآن والحديث ، والأهواء والكلام فى الدين والرد على الملحدين والاعراب واللحن والتشادق

والغريب ووصايا المعلمين والبيان والاستدلال بالعين والاشارة والشعر وحسن التشبيه فيه والأبيات التي لا مثل لها ، والتلطف في الكلام والجواب وحسن التعريض ثم سرد عدة خطب للخلفاء الراشدين ومشاهير الاسلام كأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي ابن أبي طالب رضي الله عنهم ومعاوية بن أبي سفيان ويزيد ابنه وعتبة بن أبي سفيان وعبد الله بن الزبير وزياد والحجاج وغيرهم .

السادس : كتاب الزهد ـ ويتناول : ما أوحى الله جل وعز الى أنبيائه عليهم السلام ، والدعاء والمناجاة والبكاء والتهجد والموت والكبر والمشيب والدنيا ومقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك وبعض المواعظ من كلام الزهاد وصفاتهم .

السابع : كتاب الاخوان ـ ويتناول : الحث على اتخاذ الاخوان واختيارهم والمحبة والانصاف في المودة ومداراة الناس وحسن الخلق والجوار والتلاقي والزيارة المعاتبة والتجني والهدايا والعيادة والتعازي والتهاني وشرار الاخوان والقربات والولد والاعتذار وعتب الاخوان والتباغض والعداوة وشماتة الأعداء .

الثامن : كتاب الحوائج ـ ويتناول : استنجاح الحوائج ، ومن يعتمد في الحاجة ويستسعى فيها والاجابة الى الحاجة والرد عنها والمواعيد وتنجزها ، وحال المسئول

عند السؤال ، والعادة من المعروف تقطع ، والشكر والثناء والترغيب فى قضاء الحاجة واصطناع المعروف ، والقناعة ، والاستعفاف والحرص والالحاح .

التاسع : كتاب الطعام ـ ويتناول : صنوف الأطعمة وأخبار العرب فى مآكلهم ومشاربهم ، وآداب الأكل والطعام ، والجوع والصوم والضيافة وأخبار البخلاء ، والقدور والجفان ، وسياسة الأبدان بما يصلحها من الطعام وغيره ، والحمية وشرب الدواء والحدث والحقنة والتخمة والقىء والنكهة ، والمياه والأشربة ، واللحمان وما شاكلها ، ومضار الأطعمة ومنافعها ، وأنواعا كثيرة من النبات والبقول والحبوب والبذور والفواكه كالبصل والثوم والكرنب والقنبيط والخردل الحمص والتفاح والأترج وغير ذلك .

العاشر : كتاب النساء ـ ويتناول : أخلاق النساء وما يختار منهن وما يكره ، والأكفاء من الرجال والحض على النكاح وذم التبتل ، والحسن والجمال ، والقبيح والدمامة ، والطول والقصر . ثم ذكر المهور وأوقات عقد النكاح وخطب النكاح ، ووصايا الأولياء للنساء عند الهداء ، وسياسة النساء ومعاشرتهن ، ثم استطراد الى ذكر القيان والعيدان والغناء والتقبيل والدخول بالنساء ، والجماع والقيادة والزنا والفسوق ومساوىء النساء ، والولادة والولد والطلاق والعشاق والغزل .

هذا الكتاب الجامع لشتى العلوم أملته طبيعتان : طبيعة العصر وطبيعة المؤلف .

فلقد كان العصر جامعا ، اذ كان عصر نزاع دينى ، وعصر نزاع نحوى ، وعصر علوم مختلفة وثقافات متعددة .

فلقد شهدت بغداد الصراع بين المعتزلة وأهل السنة يشارك فيه الخليفة ويشارك فيه الناس ، وكانت مشكلة خلق القرآن التى أثارها المعتزلة وتورط فيها الخلفاء ، المأمون ثم المعتصم ثم الواثق ، وحملوا الناس عليها حملا الى أن جاء المتوكل (٢٤٧ هـ) فخلى بين الناس وبين ما يرون .

والى جانب هاتين المدرستين الكلاميتين — مدرسة المعتزلة ومدرسة أهل السنة — كانت تقوم مدرستان أخريان شغلتا بالنحو هما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، وكان لكل مدرسة رأيها ولكل مدرسة أتباعها ولم تعش بغداد بعيدة عن هذا الخلاف وشارك فيه خلفاؤها أيضا يناصرون الكوفة على البصرة .

هذا الى أن عمار بغداد جذب اليها الناس ، فريق يطلب الكسب وفريق تستهويه الحياة العلمية والفكرية ، وفريق يطلب حياة الترف ، فاذا بغداد معترك يشارك فيه الكثيرون من مختلف الطبقات والثقافات والأجناس . ولقد حمل هؤلاء جميعا الى بغداد ألوانا من الفكر سرعان ما أزكت

فيها روح العلم وروح التحصيل . وصحبت هذا كله رغبة الخلفاء فى نقل العلوم والفنون الى اللغة العربية من السريانية والفارسية والسنسكريتية (الهندية) والنبطية (الكلدانية) وقد بلغ ما نقل الى العربية من تلك اللغات مئات .

وكان بعيدا على رجل مثل ابن قتيبة أن يعيش غير متأثر بالعصر الذى أظله بثقافاته المختلفة ، من أجل ذلك أملت عليه طبيعته بعد ما أملى عليه عصره أن يكون هذا المؤلف الجامع المتقصى .

وحين زخرت البيئة العربية بذلك النتاج الكثير المختلف من علوم وآداب أخذت فى جمعه تحذو فى ذلك حذو الجامعين للقرآن والجامعين للحديث . ولكنها حين أخذت فى ذلك التاليف الجامع كانت لا تلتفت كثيرا الى الاختيار ، من ذلك كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ (٢٥٥ هـ) وكتاب « الكامل للمبرد » (٢٨٥ هـ) .

وابن قتيبة فى كتابه هذا « عيون الأخبار » يعد الأول من نوعه الذى التزم أسلوبا جديدا من حيث الاختيار ثم التبويب ثم الترتيب . وقد كشف لك الثبت الذى قدمناه عن ذلك .

هذا اذا استثنينا ما عمله ابن حبيب (٢٤٥ هـ) فى

كتابه « المحبر » الذى جمع فيه أخبارا مختلفة مختارة مبوبة مرتبة .

وابن قتيبة فى تأليفه هذا الكتاب كان صاحب رسالة ، فلقد كان حريصا على أن يجمع للمتعلم والمتأدب هذا العلم وذاك الأدب فى كتاب ليمهد السبيل أمامهما فى يسر . والغريب أن ذاك الحرص كان مبعثه اشفاق ابن قتيبة من أن ينصرف الناس عن التعلم والتأدب لتشتت هذا وذاك وغياب الكتب الجامعة التى تجمع هذا وذاك . والى هذا يشير ابن قتيبة فى مقدمته حيث يقول :

« وانى كنت تكلفت لمغفل التأدب من الكتاب كتابا فى المعرفة وفى تقويم اللسان حين تبينت شمول النقص وذروس العلم ولما تقلدت له القيام ببعض الته دعتنى الهمة الى كفايته وخشيت ان وكلته فيما بقى الى نفسه وعولت له على اختياره أن تستمر مريرته على التهاون ويستوطى مركبه من العجز فيضرب صفحا عن الآخر كما ضرب صفحا عن الأول ويزاول ذلك بضعف من النية وكلال من الجد فيلحقه خور الطبع وسآمة الكلفة » .

ثم يمضى ابن قتيبة فى مقدمته يؤكد ما سبق فيقول :

« وهذه عيون الأخبار نظمتها لمغفل التأدب تبصرة ولأصل العلم تذكرة ولسائس الناس مسرتهم مؤدبا وللملوك مستشارا .

وصنفتها أبوابا وقرنت الباب بشكله والخبر بمثله والكلمة بأختها ليسهل على المتعلم علمها وعلى الدارس حفظها وعلى الناشد طلبها » .

ثم يأخذ فى الابانة عن غرضه فى جمعه فيقول :

« ولم أر صوابا أن يكون كتابى هذا وقفا على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ولا على خواص الناس دون عوامهم ولا على ملوكهم دون سوقتهم . فوفيت كل فريق منهم قسمه ووفرت عليه سهمه » .

ولقد شبه كتابه هذا بالمائدة فقال :

« وانما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين » .

وهو لهذا لم يتحرج عن :

١ ـ الافصاح بذكر عسورة أو فسرج أو وصف فاحشة ، لا يرى فى ذلك تأثما وانما يرى المأثم فى شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب ، ويرى ـ وهو يسوق القليل من ذلك ـ أن يجرى الناس على عادة السلف الصالح فى ارسال النفوس على سجيتها والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع .

٢ ـ سوق نوادر فى اللحن يرى أن الاعراب ربما سلب الحديث حسنه وأنه يشاطر النادرة حكوتها وهو على هذا يحذر قارئه فيقول :

« فلا يذهبن عليك أنا تعمدناه وأردنا منك أن تتعمده » .

٣ ـ ذكر خبر أو شعر يتضع عن قدر الكتاب وما بنى عليه . وهو يعلل ذلك بسببين :

أحدهما : قلة ما جاء فى ذلك المعنى مع الحاجة اليه .
والآخر : أن الحسن اذا وصل بمثله نقص نوراهما ولم يتبين فاضل بمفضول ، واذا وصل بما هو دونه أزال نقصان أحدهما من الآخر الرجحان .

ثم ان ثمة أبوابا من الكتاب لم تجىء مشبعة لا لنقص فيها أو اغفال منه ، وانما كان ذلك لأن المعنى قد يكون له موضعان وثلاثة مواضع فيقسم ما جاء فيه على مواضعه ، كالتلطف فى القول مثلا ، فانه يقع فى كتاب السلطان ، ويقع فى كتاب الحوائج ، ويقع فى باب البيان ، وكالاعتذار ، فانه يقع فى كتاب السلطان وفى كتاب الاخوان ، وكالبخل ، فانه يقع فى كتاب الطبائع وفى كتاب الطعام ، وكالكبر والمشيب فانه يقع فى كتاب الزهد وفى كتاب النساء .

وبعد هذا فالكتاب ثمرة جهد طويل وصل فيه ابن قتيبة حداثته باكتهاله يسمع عن الراوين وينقل من الكتب لا يعنيه الراوى أو الكتاب وانما يعنيه الخبر والموضوع فيقول :

« واعلم انا لم نزل نتلقط هذه الأحاديث فى الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا فى السن والمعرفة وعن جلسائنا واخواننا ، ومن كتب الأعاجم وسيرهم وبلاغات الكتاب فى فى فصول من كتبهم ، وعمن هو دوننا غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سنا لحداثته ولا عن الصغير قدرا لخساسته ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها فضلا عن غيرها . فان العلم ضالة المؤمن من حيث أخذه نفعه » .

وحين اجتمعت لابن قتيبة تلك الحصيلة الكبيرة بعد هذا الكد المتصل والعمر الطويل : أخبارا وأشعارا ، أخذ فى تقسيمها وتصنيفها . فاذا هذه المادة تستقيم لهذا الكتاب وتستقيم لكتب أخرى أربعة . فاستخلص منها ما يجتمع حول الشراب وجعله كتابا وسماه كتاب الأشربة ، واستخلص منها ما يستوى أن يكون معارف عامة وخصه بكتاب سماه كتاب المعارف ، واستخلص منها ما هو شعر وخصه بكتاب هو كتاب الشعراء ، واستخلص منها مايجتمع حول الرؤيا وتأويلها وخصه بكتاب سماه تأويل (تعبير الرؤية) وقد مرت الاشارة الى هذه الكتب الأربعة عند الحديث على مؤلفات ابن قتيبة .

وما بقى له بعد هذا الاستصفاء صفة على عشرة أبواب (كتب) جمعها فى كتابه هذا عيون الأخبار . والى هذا يشير ابن قتيبة بقوله فى مقدمته :

« وأنى حين قسمت هذه الأخبار والأسفار – يريد ما جمع – وصنفتها وجدتها على اختلاف فنونها وكثرة عدد أبوابها تجتمع فى عشرة كتب – كتب عيون الأخبار – بعد الذى رأيت أفراده عنها وهو أربعة كتب متميزة كل كتاب منها منفرد على حدته : كتاب الشراب (الأشربة) كتاب المعارف ، كتاب الشعر (الشعر والشعراء) ، كتاب تأويل الرؤيا (تعبير الرؤيا) .

ولقد ساق ابن قتيبة فى مقدمته هذه الكتب العشرة التى ينتظمها كتابه عيون الأخبار يذكر مع كل كتاب أبوابه وما يحتوى عليه ، وهو يريد بذلك أن يفهرس لكتابه تيسيرا على المستفيد منه كما هى الحال فى التآليف الحديثة ، والى هذا يشير ابن قتيبة بقوله :

« فهذه أبواب الكتاب جمعتها لك فى صدر أوله لاعفيك من كد الطلب وتعب التصفح وطول النظر عند حدوث الحاجة الى بعض ما أودعتها ولتقصد فيما تريد حين تريد الى موضعه فتستخرجه بعينه أو ما ينوب عنه ويكفيك منه » .

وهكذا كان ابن قتيبة باختياره ما اختار وبتبويبه هذا التبويب المصنف ثم بفهرسته هذه الفهرسة الأولى مبتدعا قريبا فيما ابتدع من أصحاب المدرسة الحديثة .

غير أن ابن قتيبة على هذا الابتداع كان يلتزم فى

بعض أخباره طريقة القدامى فى اسناد كل خبر الى راويه لا يذكر الخبر منقطعا ولكن يذكره متصلا ، فيقول مثلا فى كتاب السلطان :

« حدثنى زيد بن أخزم قال حدثنا وهب بن جرير قال حدثنا ابى قال سمعت أيوب يحدث عن عكرمة عن ابن عباس » .

ثم يسوق ما قاله ابن عباس مما هو متصل بالحديث عن السلطان .

وكما يروى ابن قتيبة بعض هذه الأخبار بهذا السند المتصل يرويها بسند منقطع فيرفعها الى أصحابها دون سند فيقول : روى أن أبا بكر ، وروى أن معاوية ، الى غير ذلك .

وكذلك يروى الشعر منسوبا الى قائله دون أن يصل هذا السند . واذا نقل ابن قتيبة من كتاب فهو كثيرا ما يذكره فيقول : « وفى التاج » و « قرأت فى كتاب للهند » وقرأت فى آداب ابن المقفع ، وقرأت فى اليتيمة ، الى غير ذلك .

ثم هو بعد هذا كثيرا ما يذكر أخبارا غير معزوة ولا منسوبة فيقول : ويقال : كما يذكر شعرا غير منسوب الى صاحبه فيقول : وقال آخر :

وهو حين يسوق الباب يقسمه فى ذهنه الى معان

ثم يورد حول كل معنى ما يتصل به . يسوق الأثر أو ما يقرب أن يكون أثرا ، ثم يسوق الخبر الذى يتصل به ، ثم يسوق الحكمة ثم يسوق الشعر وبعد هذا ينتقل الى معنى آخر يفعل فيه كما فعل مع سابقه .

فهو فى باب اللباس مثلا يقسمه ذهنيا الى التقشف والزهد فى اللباس ، يسوق حول هذا كله الأثر والخبر والمثل والحكمة والشعر . ثم يتكلم عن التجمل والاسراف بمثل ما تكلم عن التقشف . وهكذا يفعل ابن قتيبة فى سائر ما يورد .

وبعد فالكتاب كما يقول ابن قتيبة : يجمع لقاح عقول العلماء ونتاج أفكار الحكماء وزبدة المخض وحلية الأدب وأثمار طول النظر والمتخير من كلام البلغاء وفطن الشعراء وسير الملوك وآثار السلف .

ثم هو قد أودعه كما يقول : طرقا من محاسن كلام الزهاد فى الدنيا وذكر فجائعها والزوال والانتقال وما يتلاقون به اذا اجتمعوا ويتكاتبون به اذا افترقوا فى المواعظ والزهد والصبر والتقوى واليقين وأشباه ذلك .

كما لم يخله من نادرة طريفة وفطنة لطيفة وحكمة معجبة وأخرى مضحكة ليروح بذلك عن القارىء من كد الجد وأتعاب الحق وحتى لا يذهب شطر بهائه وشطر مائه ويعرض عنه من لم يكن من المتزمتين .

وهاك بابا من أبواب كتاب النساء وهو صورة من أبواب الكتاب كلها :

باب الولادة والولد

خاصمت أم عوف ـ امرأة أبي الأسود الدؤلي ـ أبا الأسود الى زياد في ولدهما منه . قال أبو الأسود : أنا أحق بالولد منها ، حملته قبل أن تحمله ، ووضعته قبل أن تضعه . فقالت أم عوف وضعته شهوة ووضعته كرها ، وحملته خفا وحملته ثقلا . فقال زياد : صدقت ، أنت أحق به فدفعه اليها .

أنشدنا الرياشي :

غلبت أمه أباه عليه فهو كالكابلي اشبه خاله

وقال آخر :

والله ما أشبهني عمام لا خلق منه ولا قوام
نمت وعرق الخال لا ينام

وقال بعض بني أسد ـ والقيافة فيهم ـ لا يخطىء الرجل من أبيه خلة من ثلاث : رأسه أو صوته أو مشيته .

قيل لرجل : ما أشبه ولدك بك ؟ قال : من ترك أهله أشبهه ولده .

قال رجل للجمان : ولدت امرأتي لستة أشهر . فقال الجمان : كان أبوها ضاربا .

عيرت نوار ـ امرأة الفرزدق ـ الفرزدق بأنه لا ولد له . فقال الفرزدق :

وقالت امرأة واجدا لا أخاله
يورثه في الوارثين الأباعد

لعلك يوما أن ترينى كأنما
بنى حوالى الأسود الخوارد

فان تميما قبل أن يلد الحصى
اقام زمانا وهو في الناس واحد

فولد بعد ذلك ولده : سبطة ولبطة وحبطة وغيرهم

بلغني عن الزيادى قال : كنت مئنانا ، فقيل لي : استغفر اذا جامعت . فولد لى بضعة عشر ذكرا .

غير أن ابن قتيبة على هذا الجهد الكبير فى هذا الكتاب الكبير وغيره لم يسلم من ناقد وعائب مثل أبى الطيب عبد الواحد بن على اللغوى (٣٥٠ هـ) حيث يقول فى كتابه مراتب النحويين (١٣٧ هـ) وهو يترجم لابن قتيبة: « وكان يشرع فى أشياء لا يقوم بها نحو تعرضه لتاليف كتابه فى النحو وكتابه فى تعبير الرؤيا وكتابه فى معجزات النبى صلى الله عليه وسلم ، وعيون الأخبار والمعارف والشعراء ونحو ذلك مما أزرى به عند العلماء وان كان نفق بها عند العامة وهن لا بصيرة له » .

وما من شك فى أن مثل هذا القول اجحاف بابن قتيبة ، وليس بكثير على رجل نزل الى ميادين مختلفة وحمل تبعات مختلفة ألا ينهض بها كلها على سواء وأن تكون له فيها هفوات وأخطاء .

وقد طبع من هذا الكتاب الكتب الأربعة الأولى منه : السلطان ـ الحرب ـ السؤدد ـ الطبائع . فى جوتنجن فيما بين سنتى ١٨٩٩ ، ١٩٠٨ فى أربعة مجلدات عليها ملحوظات بالألمانية .

كما طبع الكتاب الأول منه (السلطان) فى مصر سنة ١٩٠٧ .

ثم قام القسم الأدبى بدار الكتب المصرية بطبعه طبعة محققة جعلها فى أربعة أجزاء .

١ ـ الجزء الأول منه ويشمل ثلاثة كتب : السلطان ـ الحرب ـ السؤدد .

وكان ظهوره سنة ١٣٤٣ هـ ـ ١٩٢٥ م .

٢ ـ الجزء الثانى منه ويشمل ثلاثة كتب : الطبائع ـ العلم ـ الزهد .

وكان ظهوره سنة ١٣٤٦ هـ ـ ١٩٢٨ م .

٣ ـ الجزء الثالث منه ويشمل ثلاثة كتب : الاخوان ـ الحوائج ـ الطعام .

وكان ظهوره سنة ١٢٤٨ هـ = ١٩٣٠ م .

٤ ـ الجزء الرابع ويشمل كتابا واحدا وهو كتاب النساء . هذا الى جانب مقدمة فى أوله معرفة بالمؤلف واصفة للكتاب كاشفة عن منهج التحقيق ثم فهارس فى آخر هذا الجزء للأجزاء كلها تضم :

١ ـ فهرسا للشعراء .
٢ ـ فهرسا للأعلام .
٣ ـ فهرسا للأمم والقبائل .
٤ ـ فهرسا للأماكن .
٥ ـ فهرسا للكتب .
٦ ـ فهرسا للأمثال .
٧ ـ فهرسا لأيام العرب .
٨ ـ فهرسا للقوافى .
٩ ـ فهرسا لأصناف الأبيات .

ويعد هذا صفحات بالأخطاء التى وقعت بالأجزاء وتصويبها .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٤/٥٣٧٥

ISBN — 977 — 01 — 3975 — 0